رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

أول من ركب ظهر البحر غازيا

رجل يريد العصر.. والعصر يريده

• معاوية بن أبي سفيان •

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت رمال مكة فى ذلك الوقت أكثر توددا لأهلها ،وقد خفت حرارتها أو تبدلت تماما، مع نسائم يوم من أيام العرب الأكثر إغراء للتنزه.. وفى ذلك اليوم قال أبو هريرة ـ فيما رواه الشاذلى عن الطبرى ـ رأيت "هندا" بمكة وكان وجهها فلقة قمر، ومعها صبى يلعب، فمر رجل فنظر إليه فقال: إنى لأرى غلاما إن عاش ليسودن قومه.. فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله !! وربما كان طموح السيدة هند بنت عتبة أكبر من ذلك كثيرا، وهى تسترجع فى تلك اللحظة ما قاله أحد كهان اليمن، وفيما ترويه كتب التراث عن قضية التحكيم بينها وبين زوجها الأول الفاكه بن المغيرة: أنك لتلدين ملكا يقال له معاوية!!

وقد حدث، وتحققت النبوءات، ولو كذب المنجمون..

وفيما بعد.. لم يختلف الرواة والمؤرخون وكتبة التراث، كما اختلفوا على الصحابى الجليل معاوية بن أبى سفيان.. واختلفت الأحكام على الرجل، حين يقال الكثير عن تاريخ النابهين، وعن العظمة الباهرة لأولئك الرجال من أصحاب الرسول الكريم، وعن الفضائل التى تبدو فى إعجازها كالأساطير، ولم يسجل تاريخ الإنسانية ـ أوائلها إلى حواضرها مثلها، وبقدر ما بذل أصحابها فى سبيل التفوق والعطاء.. وهى حقائق ترسم صورة شخصيات تسمو وتتألق، وقد امتلأت قلوبهم يقينا وعزما..

ومهما اختلفت الآراء.. والدعاية له أو الدعاية عليه، فإن المداخل التى تصحح لنا موازين التاريخ، تقول إنه ليس بوسع رجل أسلم على يد النبى عليه السلام، وصاحبه، وعمل على أيدى الجلة من صحابته، أن

يغفل عن غيرة دينه، وأحكام فرائضه، ومحددات أفعل ولا تفعل فى الشريعة الإسلامية، وواجبات المروءة فى عرف زمنه.. وهو من كتب للنبى ﷺ، وحضر مجالسه، ويعلم من فقه دينه ما لابد أن يعرفه من شهد عهد النبى ﷺ كله، وعهد خليفته من بعده، وقد مرت به الأقضية التى فصل فيها ولاة الأمر على مسمع منه، ولم يقصر فى معارف دينه، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من قضايا..

ورغم تأخر إسلامه، وكما تأخر إسلام أبيه، فأسلما معا فى عام الفتح، وهو فى نحو الثالثة والعشرين، فإن الصحابى الجليل معاوية بن أبى سفيان، كان أثبت عقيدة، وأصدق إيمانا، وقلبه العامر بحب الرسول ﷺ جعله يتحين الفرص للفوز بما يربطه بمن يحب وآمن به، وحين وجد قلامة من ظفر رسول الله ﷺ وشعرات من لحيته الشريفة، انطلق على سجيته للفوز بها، وظل محتفظا بالأثر الكريم حتى أوصى بأن تدفن فى كفنه.. وهؤلاء الذين عاصروا الرسول ﷺ وآمنوا به، قد جاءوا الحياة فى أوانهم المرتقب، واقتحموا الحياة بعقيدة الإسلام، وفى أجواء أشد قسوة على المسلمين الأوائل والذين أنجزوا ما يشبه المعجزات فى بضع سنين.. وعلى أيديهم انتشر الإسلام، واتسعت حدود الدولة الإسلامية إلى ما وراء البحار، وهى رؤية الرسول عليه السلام عندما غفا يوما ثم استيقظ يضحك وقال: "عرض على ناس من أمتى يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة".. وكانت البداية فى سنة خمس وعشرين هجرية حين غزا "معاوية" الروم، فبلغ عمورية، فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرطوس خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة.. واستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح قبرص،

وبعد أن استشهد الفاروق غدرا، كتب الخليفة عثمان بن عفان يستوثق من طلب معاوية فتح قبرص وتأمين الملاحة حولها، فأمره ـ كما جاء فى البلاذرى ـ بأن يركب البحر إليها، وفى السنة السابعة والعشرين من الهجرة قاد معاوية جيش الإسلام لفتح قبرص، وشهد هذه الغزوة من الصحابة أبو ذر الغفارى، وأبو الدرداء، وعبادة بن الصامت، وغيرهم.. وكان الصحابى الجليل معاوية بن أبى سفيان أول من ركب ظهر البحر من العرب غازيا فى سبيل الله ناشرا لدينه، وهو العربى الذى عاش فى الصحراء، لا يرى بحرا، ولم يركب سفينة أو قاربا فى حياته.. ورفعت راية التوحيد على جزيرة قبرص..

هؤلاء الذين عاصروا الرسول ﷺ، جاءوا روادا، ومستشرفين للمستقبل، وعقدوا عزمهم ونواياهم على غاية سامية، وحين كانت الحياة تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة.. وفى هذه الأجواء كان الصحابى الجليل "معاوية" ورغم تأخر إسلامه، من الذين اقتحموا الحياة بعقيدة الإسلام، وسجلوا تاريخ النابهين، وهم من أنفع الناس للبشرية والإسلام.. وفى التاريخ الإسلامى مراحل كثيرة اختلفت معها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال، وكان الاختلاف حول "معاوية ابن أبى سفيان" فى الصدارة، وحين يؤرخ لمرحلة مفصلية وحقبة فاصلة فى تاريخ الأمة الإسلامية.. ولكن لم يختلف أحد على أن الرجل كان يتعبد، ويتصدق، ويقرأ القرآن، ويستغفر من ذنوب وقع بها، ويقيم الصلاة، ويسرد الصيام، وهو من تلقى على يد الرسول الكريم التربية الإسلامية.. ومع حيازته لسلطات وسلطان الملك، كان يقول: "إنى لأستحى أن أظلم من لا يجد ناصرا على إلا الله".. وقد سمع غير مرة يقول ما معناه: إنما شيبنى حذر الخطأ فى الجواب..

والحكم على "معاوية "لم يراع الطبيعة البشرية للرجل، حتى لو كان صحابيا جليلا، فالنوازع البشرية هى الفواصل المحددة بيننا وبين الملائكة.. ومن هنا قيل الكثير عن مرحلة النزاع بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان ﷺ جميعا ولم يلتفت بعض المؤرخين والرواة لمفتاح شخصية معاوية.. رجل ورث السيادة من أبويه، أو كان له طموح إلى السيادة ورثه مع جاه الأسرة العريقة ـ هند بنت عتبة بن ربيعة وكانت ذات رأى وعقل وأنفة، وأبو سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين، وكان يلقى هرقل وأمراء بيته فى رحلاته التجارية، ويعول عليه هؤلاء فيما يعينهم من أحوال العرب وأخبارهم ـ وكان "أبو سفيان "يحب الفخر، ولعلم عمر بن الخطاب بهذا، طلب من رسول الله ﷺ حين دخل مكة فاتحا أن يجعل له شيئا، فقال الرسول الكريم ﷺ "من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن "وفى هذا البيت كانت النشأة والتكوين، وهذه الظروف المحيطة به منذ مولده هى التى صاغت رؤيته وفكره وحكمته وصبره ورجاحة عقله..

وهكذا كانت التمهيدات التى تربى عليها..

. . . .

وليس غريبا ـ إذن ـ أن يكون "معاوية" وهو مازال صبيا على شغف خاص بالاستماع إلى سير الملوك، ووقائع الأمم، وأطوار الدول الغابرة، وقد نشأ فى الجاهلية نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة.. وحين علم أن "عبيد بن شرية الجرهمى "يعى تواريخ التبابعة والأكاسرة، أرسل يستقدمه من صنعاء، وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التواريخ، فألف له كتاب "الملوك وأخبار الماضين".. ولما جاء عصر الملك، طلب الملك،

والملك يطلبه.. رجل يريد العصر، والعصر يريده.. وبعد أن تهيأ له "معاوية "بطموحه ومواريثه ونياته، والدهاء والحلم معا، وهو دهاء يعتمد على قدرة عقلية فائقة تمنحه قدرة السيطرة على الناس وقيادتهم، القدرة العقلية التى تسخر الأعوان منقادين مستسلمين..

ورغم موروث الرئاسة والطموح، فإنه حين سمع من يقول له السلام عليكم أيها الملك، كان ينكر الاسم ولا ينكر السمه.. ومع إقبال الدولة والدنيا، دخل عليه عمرو بن العاص فرآه يراقص إحدى بناته، وكأنه لمح منه تعجبا لفعله، فنظر إليه وهو يقول: يا عمرو ،هذه تفاحة القلب.. وقد تناثرت الأخبار فى كتب الأدب والتاريخ عن وقائع يلتبس فيها الحلم "المفرط" ببطء الغضب وطول الروية والإناءة.. وكان يقول فى مجالسه: لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت.. وحين سأله بعضهم: كيف ذلك؟ فقال: كنت إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها..

وإذا كانت وقائع قصة النزاع على الخلافة مع على بن أبى طالب، والاستئثار بالسلطة والملك، هى التى تدفع نفسها دفعا حين تأتى سيرة العظماء، ومن بينهم الصحابى الجليل معاوية.. فإن متغيرات العصر وأحكامه ـ من وجهة نظر المفكر الكبير عباس العقاد ـ تجعل دوام الخلافة على سنة أبى بكر وعمر أبد الأبدين من غير المستطاع، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذى يؤجل إلى زمن بعيد، وأن "معاوية" كان ينازع طبعه بين الخليقة الأموية وبين آداب الدين الذى يتولى خلافته، وكان بنو أمية فى الجاهلية والإسلام من أصحاب الطموح إلى الزعامة، ومزاج حيوى يميل إلى الدنيوية أو النفعية..

.....

والرجل لم يكن من النفعيين، ويكفى أن ينسب إلى الصحابى الجليل عمل من الأعمال التى لا يقدر عليها من لم يعاصر الرسول ﷺ وتتلمذ على يديه.. وهذه حقيقة رجال كانوا حول الرسول ﷺ، وكان معهم برهان المنطق والعقل، وقبل كل هذا كان معهم النور الذى اتبعوه، وأضاءوا الضمير الإنسانى بحقيقة التوحيد .

obeikandl.com